دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	التراث المعماري بالجنوب المغربي : نموذج منطقة سكورة إقليم ورزازات
المصدر:	دورية كان التاريخية
الناشر:	مؤسسة كان التاريخية
المؤلف الرئيسي:	بزضيك، عبدالناصر
المجلد/العدد:	س 2, ع 6
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2009
الشهر:	ديسمر / ذو الحجة
الصفحات:	22 - 31
رقم MD:	454666
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	التراث الحضاري ، الموقع الجغرافي ، العمارة، سكورة ، المغرب
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/454666

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

التراث المعماري بالجنوب المغربي
نموذج منطقة "سكورة" إقليم "ورزازات"

عبد الناصر بزضيك
باحث في التاريخ والتراث
وارزازات – المملكة المغربية
babdenaser@gmail.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عبد الناصر بزضيك، التراث المعماري بالجنوب المغربي: نموذج منطقة سكورة إقليم ورزازات – دورية كان التاريخية – العدد السادس؛ ديسمبر ٢٠٠٩ .
ص ٢٢ – ٣١ . (www.historicalkan.co.nr)

تعتبر منطقة سكورة من بين المناطق الجنوبية، ذات الإرث الثقافي والحضاري المتبلور في نمط الاستقرار الجماعي. هذا الأخير الذي أسهمت فيه عوامل طبيعية وبشرية، جعلت منه تراثا حضاريا يميز المنطقة الجنوبية الشرقية للأطلس الكبير عموما، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر "قصور" وقصبات حوض دادس وسكورة وتدغة. و"قصور" وقصبات تافيلالت، وكذا طريقة تكيف السكان والمناخ البيئي، الذي يفرضه المجال الذي تحوزه المنطقة خاصة فيما يتعلق بالموارد المائية التي هي أساس كل استقرار بشري.

وقد خلقت مظاهر الاستقرار بهذا المجال نوعا من التكامل الحضاري بين مختلف الجماعات البشرية التي اتخذت هذا الموروث نمطا لاستقرارها بالمنطقة، ومن هذا المنطلق، فإن دراستنا هذه تلزمنا أن نكشف النقاب عن بعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية لهذه المواقع الأثرية، وتسليط الضوء على دور هذا الموروث، في الاستقرار البشري بالمنطقة.

إن الدافع الرئيسي لاختيار هذا الموضوع، فيه ما هو ذاتي وما هو متعلق بأهداف الموضوع؛ فالمبرر الذاتي وبعيدا عن أي تعصب أو انتماء، يتجلى في أن المنطقة تدخل ضمن انتمائنا الإقليمي وهي فرصة للتعريف بهذا الموروث الثقافي الذي تمتد جذوره عبر تاريخ العمران في حوض البحر المتوسط. إضافة إلى معاينتنا لبعض نماذج هذا الإرث الحضاري، وغياب الكتابات على المستوى الوطني في هذا الصدد، على عكس بعض الباحثين الأجانب الذين أولوا التاريخ الحضاري والثقافي لهذه المنطقة أهمية قصوى، ترجمتها العديد من أبحاثهم، وهذا في ظل شبه انعدام لأية محاولة للوزارة المعنية، وكذا الجمعيات ودور الشباب التي لم تضع هذا النوع من الأبحاث في مقدمة اهتماماتها فكان ذلك إحدى أهم الأسباب التي دفعت بنا إلى أن نخطو هذه الخطوة من أجل نبش هذا التراث.

أما بخصوص الإشكالية التي يطرحها هذا البحث، والتي قد تفهم من خلال عنوانه، فهي محاولة الإحاطة ولو بشكل من أشكال البحث والدراسة الهادفين، وجرد لأهم المناطق الأثرية بواحة سكورة والتي تندرج ضمن واحات السفوح الجنوبية للأطلس الكبير الأوسط والشرقي، وتحوي معالم عمرانية تجثم على جنبات واد الحجاج الذي يخترق الواحة ويسقي فلاحتها، هذه الأخيرة التي جعلت من المنطقة قبلة العديد من الهجرات السكانية إذا علمنا أنها تقع على ممر للقوافل التجارية، هذا التوافد الذي اتخذ "القصور" والقصبات شكلا عمرانيا لإيوائه، هذا بالإضافة إلى تقديم صورة لواحدة من أهم تقنيات التحكم في المياه، والمتمثلة في الخطارات التي كانت وما تزال المورد الأساسي لمياه الاستغلال الذاتي والجماعي في المنطقة.

ومن المفارقات التي لاحظناها على هذا النوع من البناء هو ذلك الاختلاف الحاصل في بنية "قصور" من خلال مقارنة بين "قصور" واحات تافيلالت، تدغة، ودادس، وكذا ذلك التباين الحاصل بين "القصر" كنمط عمراني تميزه البناية والعمارة المحلية وبين البنية السكانية لهذا القصر إذ نجد أن أغلب السكان من أصل عربي أو بالأحرى يتكلمون العربية دون الأمازيغية، خاصة في واحد سكورة التي يطغى عليها غلبة العنصر العربي دون سائر الواحات الأخرى، مما يجعلنا أمام عدة تساؤلات بخصوص هذا التباين الحاصل في بنية "القصر" الاجتماعية.

وكما جرت به العادة، فقد بدأنا هذا البحث بمدخل عام حول جغرافية وتاريخ المنطقة، بعدها حاولنا تقديم نظرة على العمارة الطينية، ومراحل تطورها بالمنطقة، وقدمنا لذلك نموذج القصبة. كما تمت الإشارة إلى أهم الموارد المستعملة في إنتاج هذا النوع من المعمار، وطرق توظيفها بالمنطقة، ثم إلقاء الضوء على نموذج لأهم التقنيات التقليدية المستعملة في تدبير عنصر الماء بالمنطقة، والمتمثل في تقنية الخطارات، وختمنا هذا البحث بخاتمة تضمنت أهم الاستنتاجات.

تشكل سلسلة جبال الأطلس حاجزا كبيرا، من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي للمغرب، حيث تتكون من الأطلس المتوسط أولا ثم الأطلس الكبير حيث القمم ترتفع إلى ما فوق ٤٠٠٠ م.

واحة سكورة الموجودة على بعد ٤٠ كيلو متر شمال شرق مدينة ورزازات على ارتفاع ١١٥٠ م في الانحدار و ١٢٥٠ م في الصعود. هذه الواحة التي نمت حول مجموعة من الأودية النابعة من الأطلس الكبير، من الغرب إلى الشرق، نجد وادي إمدري، وادي بوجهيلة ثم وادي الحجاج النابع من التجمع المائي "لتوندوت" و "تكرنادا".

تعتبر منطقة سكورة من بين المناطق الجنوبية، ذات الإرث الثقافي والحضاري المتبلور في نمط الاستقرار الجماعي، هذا الأخير الذي أسهمت فيه عوامل طبيعية وبشرية، جعلت منه تراثا حضاريا يميز المنطقة الجنوبية الشرقية للأطلس الكبير عموما. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر "قصور" وقصبات حوض دادس وسكورة وتدغة. و "قصور" وقصبات تلافيلالت، وكذا طريقة تكيف السكان والمناخ البيئي، الذي يفرضه المجال الذي تحوزه المنطقة خاصة فيما يتعلق بالموارد المائية التي هي أساس كل استقرار بشري.

وقد خلقت مظاهر الاستقرار بهذا المجال نوعا من التكامل الحضاري بين مختلف الجماعات البشرية التي اتخذت هذا الموروث نمطا لاستقرارها بالمنطقة، ومن هذا المنطلق، فإن دراستنا هذه تلزمنا أن نكشف النقاب عن بعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية لهذه المواقع الأثرية، وتسليط الضوء على دور هذا الموروث، في الاستقرار البشري بالمنطقة.

منذ أوائل العصر الوسيط إلى غاية القرن ١٥ م، تحتل مملكة سجلماسة أكبر تيارات المبادلات التجارية من الشمال إلى الجنوب على ثلاثة محاور:

- في الغرب على الساحل الأطلنتي لموريطانيا نحو ميناء ماسة، ثم عبر الطريق البحرية نحو أوربا.
- في الوسط من تمبوكتو نحو درعة، تلوات، فمراكش، فاس ثم إسبانيا.
- في الشرق من السودان عبر سجلماسة، فاس إلى إسبانيا.

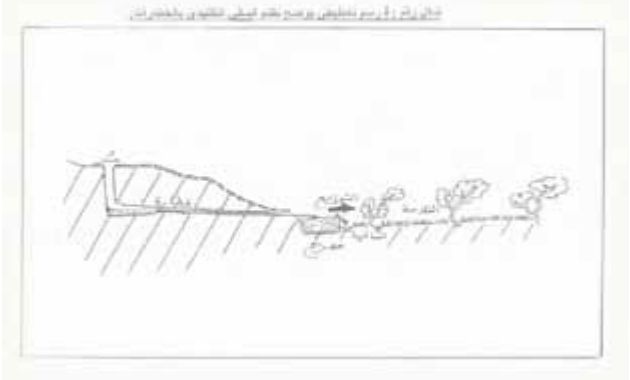

كانت مدينة سجلماسة مركزا تجاريا للذهب القادم من السودان، وتتم المبادلات بصعوبة من الغرب إلى الشرق؛ بسبب المنخفضات والمرتفعات على سطح الأرض، ولكن وعورة المسالك في الشمال الجنوبي تؤدي بالقوافل إلى القيام بمنعرجات وعبور طرق أخرى قليلا ما تستعمل. ولهذا تمر بعض القوافل من منطقة سكورة ذات الساكنة القليلة، ولكن المشهورة كباحة للاستراحة لدى القوافل (تحكي الأسطورة أن بذور التمور التي أكلت من طرف القوافل هي التي أدت إلى نمو واحة النخيل) قبل صعود الجبل عبر تيزي نفدغات على ارتفاع ٢٨٥٠ م للوصول إلى دمنات وفاس.

"ويستفاد مع ذلك من وصف البكري في "المسالك والممالك" أن هسكورة كانوا يراقبون الطريق بين سجلماسة وأغمات لوقوعهم على طول مسافة أربعة أيام بين ورزازات وزركطن عبر ممر تلوات. كما كانوا يراقبون الطريق بين أغمات وداي وربما حتى عن "تدغة"، ويستفاد مع ذلك من وصف البكري (...) كانوا يراقبون الطريق بين أغمات وداي ثم فاس، لمرورها ببلد تيفت الهسكوريين."

ولأنها مركز مهم للعبور قبل القرن ١٢ م، فقبائل سكورة قطعت أشواطا في طريق الاستقرار بعد توقفها عن التوسع. وقد قام الموحدون بخطوات في هذا الاتجاه، لأن استقرار الهساكرة الذين كانوا يكونون قوة هائلة. كان أمنا للدولة وعاصمتها. فبعد خروج أبا يعقوب يوسف سنة ٥٧٢ هـ من مراكش برسم الغزو لصناجة القبلة، وصل رباط هسكورة فأمر الناس ببناء البيوت ودور للسكنى...

العديد من الأنقاض والأطلال تدل على بداية هذا الاستقرار السكاني، والذي سوف يثبت بوجود بنايات عديدة منذ القرن ١٥ و ١٦ الميلاديين، خاصة بعد موجة الهجرات التي عرفتها المنطقة خلال القرن ١٩ من تافيلالت. إضافة إلى أن قربها من درعة كان له تأثير على البناء التقليدي بها، مما خلف تشابها في الزخرفة وتفاصيل هندسية مع "قصور" تافيلاليت وأشكال فضائية مع بنايات "القصور" بدرعة.

أما فيما يخص البنية السكانية لواحة سكورة. فمن بين العناصر العرقية القديمة في المنطقة، نجد السود المعروفين بالحراطين الذين كانوا يتعاطون لفلاحة البساتين. ويشكل الأمازيغيون المستوطنون ما بين الأطلس الكبير إلى صاغرو العنصر الثاني في ساكنة سكورة؛ وهم الذين كونوا التجمع القبلي الذي تم تجنيده ضمن الجيش الموحدي. فقد كانت هسكورة من القبائل التي ذكر البيدق مشاركتها في دخول الموحدين مراكش بقيادة أبو بكر بن الجوهر، وكانت خمسمائة من عسكر هسكورة رجالا دون خيل.

يعتبر البدو الرحل من عرب بني معقل العنصر الثالث من ساكنة سكورة، والذين طردوا من مصر خلال القرن ١١ م، عبر إفريقية ثم المغرب الأقصى حيث وصل أعراب معقل إلى درعة في أيام يعقوب المريني (٦٥٦ هـ / ٦٨٥ هـ). وضيقوا بهسكورة القبلة في وادي دادس، مما أرغمها على الاعتصام بالجبال. كما كان لوجود هؤلاء البدو على طرق المواصلات التي كانت تربط حصون هسكورة بمراكز تجارية على أبواب الصحراء، من جهة وبفاس ومراكش من جهة أخرى، قد جردهم من الفوائد التي كانت لهم بمراقبة تلك الطرق.

انطلاقا مما سبق يلاحظ أن الحراطين والأمازيع، والعرب هم أهم العناصر المشكلة لمجتمع سكورة. وفي الوقت الراهن يلاحظ هيمنة اللغة العربية وتراجع الأمازيغية في أرجاء سكورة، فأسماء الأماكن فقدت التسمية الأمازيغية، مثال: كلمة "أسيف" تعني مجرى المياه في الأمازيغية. أصبحت "وادي" كلمة عربية تدل على الشيء نفسه.

كذلك نجد كلمة "إغرم" والتي تعني البرج، أو المكان المحصن في اللغة الأمازيغية، فقد أصبحت متداولة تحت اسم "قصر" أو "كصر"، والتي تحمل المعنى نفسه في اللغة العربية، ولعل ذلك كان سببا في تحويل كلمة "تغرمت"، والتي تحمل معنى القلعة أو الحصن في الأمازيغية، إلى كلمة "قصبة" مثيلتها في العربية، وهذا التحول اللغوي الذي لم يعقبه تحول دلالي لهذه الأسماء بين اللغتين. كان السبب فيه اختلاط هذه العناصر مع بعضها البعض. وكذلك فالنصوص الدينية والمعاملات التجارية كلها تتم باللغة العربية، وهذا ما يفسر انفراد سكورة بهذه الخاصية واستحواذ العربية.

تتحكم طبيعة المنطقة في توزيع الأنشطة داخل الجماعات البشرية المشكلة للمجتمع السكوري. خاصة الأنشطة الفلاحية منها. فالفلاحات الصغيرة أو "الفدادين" باللغة العامية في المنطقة، وكذا تربية الماشية والدواجن القليلة، تسمح بسد الحاجيات الضرورية للسكان. إضافة إلى الأعمال والصناعات التقليدية اليومية، فالرجال يقضون أوقاتهم في الحرث والزرع، وتهيئ السواقي وجني التمور والزيتون، وصناعة الآجر من الطين، وصناعة السلال والحبال من جريد النخيل. في حين تنحصر أعمال النساء، في جلب الماء وجمع الغلات، وصناعة الزرابي، بعد غزل وتقطيع الصوف، واختيار النماذج الجيدة، وذلك لملء الفراغ المتبقي من عمل الحقول.

وتقدر ساكنة سكورة ١٨٥٤٥ نسمة (حسب إحصاء ١٩٨٢) متفرقة على ٤٧ دوارا تضمها واحة النخيل، فهذه الدواوير متجمعة بدورها في ثمانية دواوير أخرى هي "أولاد منيع" "أيت عمرو" "الخامسة" ، "الروحة" ، "أولاد يوسف" "أمزاورو" ، "أولاد يعقوب" "أولاد معكل".

الأصول التاريخية للعمارة الطينية وأهميتها بالمجتمع الواحي

يعتبر الطين أساس العمارة التي امتدت في أصقاع وأزمنة مختلفة، منذ عشرة آلاف سنة ما قبل الميلاد، وفي أول شكل للتنظيم البشري عرفه كوكب الأرض؛ بنيت مدينة أريحا بالطين. وفي القرن السابع قبل الميلاد بني من هذه المادة برج بابل في بلاد الرافدين بارتفاع يصل إلى تسعين مترا. وقد انتشر استعمال الطين في حضارات بلاد الشام وما بين النهرين، ومصر الفرعونية والحضارة الإسلامية والرومانية والهندوسية، وحضارة الهنود الحمر والمكسيك وغيرهم.

ولقد كثرت وتشعبت الفرضيات والتفسيرات حول أصل هذه التقنية، فهنا من المؤرخين من يرى أنه من الساحل الأطلنتي إلى أفغانستان مرورا باليمن والعراق وإيران، توجد أنماط من العمران تنم عن دقة متناهية في العمل. وبالنسبة لـ Hnri Terasse يرجع أصلها إلى

الرومان. في حين نجد Dj acq ue Meunie وآخرين يوحون إلى تأثيرات جاءت إلى المغرب من الفراعنة بمصر القديمة. وأخيرا Jean Maz el الذي يقترح أن هذه التقنية الهندسية مقتبسة من اليمن الجنوبي عبر العرب.

لقد استعملت عمارة الطين على نطاق واسع، والسر في ذلك يكمن في ملاءمتها للظروف الاقتصادية والمناخية؛ ولقد ساعدت هذه العمارة على تجسيد فنون الشعوب المختلفة في أشكال رائعة، تعبر أولا عن البدائية والغريزة الصافية. ولقد تميز العصر الحجري الوسيط بظهور بدايات العمارة، لأن الإنسان ترك الإقامة داخل الكهوف والمغاور، واتجه للسكن حول ضفاف الأنهار والبحيرات في أكواخ شيدت من أعواد القصب بجدران مائلة للداخل ولها سقوف من أغصان الأشجار والطين. ظهر في الجنوب المغربي ما سمي "بتزكزاوين" Tizagzaouine ، والتي شيدت على ضفاف الوديان، وتتميز بمساكن يتم تشييدها فوق مرتفعات تشرف على الحقول الناتجة عن الوديان المارة بالقرب من هذه المرتفعات. وغالبا ما تكون هذه المساكن عبارة عن قصبات أو "قصور". وإجمالا يمكن القول إنه إذا كانت الأصول صعبة التحقق، فإن هذه التقنيات مازالت سارية وقادرة على الحفظ، والحصول على قيمتها الصحيحة لأنها تشكل الأساس الأول لانطلاق العمارة وتنوع نماذجها وأساليب بنائها وتصميمها.

عرف حوض دادس وواحة سكورة على وجه الخصوص، ظهور أنماط بناء في شكل تحصينات، عرفت تطورا بتطور الظروف الاجتماعية والاقتصادية بالمنطقة. وقبل القيام بتحليل للقصبات، ولتركيبتها ولخصائصها الجوهرية من الواجب بيان المصدر والسياق اللذين ظهرت فيهما، خاصة وأنها تجسد النموذج المعماري الخاص بوادي دادس.

مراحل ظهور القصبات وتطورها

المرحلة الأولى: بظهور القصبات، ظهر أسلوب جديد متميز بأشكاله ومواصفاته، وأبعاده، ينسجم بمحيطه البيئي أيما انسجام. وقبل المراحل الأولى لظهور القصبات، عرفت المنطقة بروز استغلاليات فلاحية صغيرة ومحصنه، ذات طابع عائلي كقلاع لحراسة السواقي والحقول تحت اسم "إغرم" أو "القصيبة" أو "تكمي نيكران" باللغة الأمازيغية، أي "منزل الحقل". ومازالت بقاياها هنا وهناك وسط الحقول.

وتحيط العديد من المؤشرات، أن الشكل الحالي للقصبات، لم يكن يمثل النموذج الأصلي وإنما عرف عدة تطورات عبر مراحل مختلفة. فقد كانت في الأصل مجرد سكن محصن. ولم تزود بالأبراج إلا بعد خروجها من "القصر" وانتشارها خارجه. لكن الأكيد هو أن القصبات بشكلها الحالي ما هي إلا نتيجة طبيعية لتطوير شكل "القصيبة" من مغفر للحراسة إلى مسكن عائلي محصن.

شكل رقم2: تجهيزات القصر بمنطقة تافيلالت

شكل رقم ٢ : تجهيزات القصر بمنطقة تافيلالت

المرحلة الثانية: إن من الأسماء الأخرى التي كانت تطلق على القصبة اسم "التغرمت"، الذي هو مشتق من اسم "إغرم" الذي هو "القصر" و "التغرمت" عبارة عن بناية سكنية عائلية، محصنة تتواجد بالأطلس الكبير قبل ظهورها في أودية دادس ومكون، وسكورة. ومع بداية القرن الثامن عشر، بدأت المنطقة تعرف ظاهرة جديدة وهي ظهور التجمعات السكنية المحصنة داخليا في سور، هذه الأماكن كانت تابعة لنخبة من مجتمع "إغرم" (العائلات الميسورة) هي قصبات.

وعموما يمكن القول بأن هذه الإرهاصات الأولية كانت تتصف في مجملها بما يلي:

- تواجد القصبة داخل الأسوار استعمال مختلف خدمات وتجهيزات "القصر" (إغرم).
- موصلة حيازة بناية داخل "إغرم"، التي يمكن أن تكون مخبأ أثناء فترة الحروب أو مخازن اللعائلات.
- حال هذه الأماكن مطبوع بتواجد ممر داخل البناية على شاكلة "إغرم" كوحدة سكنية مستقلة داخل الأسوار، يمكن أن يتواجد كمحطة وسيطة لاستقلالية القصبة وانفصالها عن "إغرم". وهنا يطرح سؤال عن أسباب تواجد هذه النماذج البنائية في منطقة تلوات قبل دادس، مكون وسكورة.

إن جواب ذلك، هو أن الوضع الجغرافي (المناخ – طبوغرافية المكان – وحدة جبلية ...) لعب دور تحصين، وحاجز طبيعي ضد العدو، والذي عوض بذلك التجمعات السكانية داخل الأسوار.

المرحلة الثالثة: تميزت بانفصال القصبة عن "إغرم"، وبذلك أصبحت "القصور" موطنا للفقراء والوافدين من الخدم، بعد خروج العائلات الميسورة من هذه الأخيرة وتعميرها للقصبات التي أصبحت سكنا نموذجيا فاخرا، تجلت فيه المتغيرات السياسية والاجتماعية الحاصلة في الواحات الجنوبية عموما، واحات دادس على الخصوص.

في نهاية القرن ١٩ م، وبداية ٢٠ كان الجنوب الشرقي المغربي تحت سيطرة أسرة "الكلاوي"، بعد تعيين "سيدي محمد الحبيب المزواري" على منطقة "أيت واوزكيت" في عهد السلطان مولاي الرحمن. وسيصبح خليفته "سيدي المدني الكلاوي" باشا مراكش، سيدا مهاب الجانب إضافة إلى "الخليفة" و "الشيخ"، الذين مارسوا سلطة تيوقراطية على ساكنة المنطقة، إلا أنهم لم يستطيعوا بسط سيادتهم على جميع المنطقة خاصة درعة التي كانت تحت سيطرة أيت عطا.

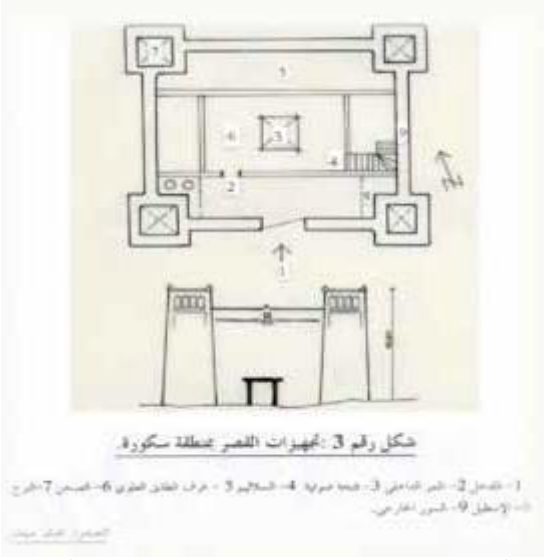

شكل رقم ٣ : تجهيزات القصر بمنطقة سكورة

وكانت بداية تأثير الاستعمار على المنطقة منذ مارس ١٩٣١ م، حيث تم التحكم في ساكنة درعة، ولعب هذا الأخير دورا هاما في تغيير النموذج التقليدي، ومنه يمكن اعتبار نزوح "الكلاوي" ومعاونيه إلى المنطقة وسياسته القمعية المتبعة؛ كانت من بين العوامل المساعدة على تسهيل مهمة القوات الفرنسية ويظهر ذلك أساسا من خلال:

- تأسيس قاعدة عسكرية خارج "القصر" من طرف "الكلاوي" بعد استبعاد ممثل المخزن، مما أحدث نوعا من عدم التوازن في العلاقات الاجتماعية.
- بناء المستعمرين لمركز عسكري إداري كمرحلة أولى لإحلال السلم، ثم محلات إدارية ومنازل صغيرة لإيواء الموظفين القائمين على أمور المنطقة، وتشكل هذه البنايات المركز الإداري الحالي.

المرحلة الرابعة: مع انفصال القصبة عن "إغرم"، ومع انغراسها خارج الأسوار أصبحت تعرف أبعاد فضائية متتابعة، وأصبحت محاطة بمجموعة من الأبعاد، مشكلة عدة وحدات فضائية داخل نفس البناية، حيث تتموضع القصبات السكنية عموما بشكل يجعلها تجد متكئا على الجبل تعطيه ظهرها، وتطل على الحقول، هذا الموقع يجعل المسالك الموصلة إلى "التغرمين". أي القصبات وعرة مما يسهل

عملية الدفاع عنها ضد الهجومات، واجتناب الفيضانات، والحملات الطوفانية الموسمية، كما ساعد في الوقت نفسه على الحفاظ على الأراضي الصالحة للزراعة.

شكل رقم : ٤ رسم تخطيطي للعناصر المشكلة للتابوت.

فموضع القصبات يرتكز على أسس نفعية، يعكس المنهجية البنائية المتميزة بهذه المناطق، والمثير في هذا النهج، اندماج النماذج العمرانية داخل هذه البيئة الطبيعية بشكل كبير، يتجانس والمشهد الطبيعي العام للمنطقة؛ يتوسط المحور المائي المشهد الطبيعي، ويتكون من النهر وشبكته والسواقي المتفرعة عليه، فتترامى حوله الحقول والنماذج العمرانية وتنتشر الحقول الصالحة للزراعة على منبسطات ضيقة تغطيها أشجار اللوز والرمان التي عوضت أشجار النخيل.

أما التجمعات السكنية، فيختار لها عادة أن تكون على المرتفعات الجنوبية أو الشرقية، لتستفيد بشكل جيد من أشعة الشمس، والاحتماء من الرياح. هناك ظاهرة معمارية تثير التساؤل بمنطقة دادس، وهي تواجد الباب الرئيسي للقصبات بالجهة الشرقية؟ ويمكن تفسير هذا الوضع بكونه يدخل في قوانين البناء المتعارف عليها، حيث أن للقبلة مكانة هامة لدى المسلمين للتبرك، وتوفير مجال إضافي يغطيه ظل ما بعد الظهر أمام المنزل، والذي يستغل كمكان للجلوس، والاستقبال مثلا، أو كمرابط للدواب. زيادة على أن الواجهة الشرقية للبيوت، هي أكثر حماية من عوامل التأثيرات الطبيعية، كالأمطار والرياح والثلوج؛ هذا الموقع السائد للقصبات لا يستثنى منها القصبات المخزنية، التي يراعا في الغالب منها عنصر الارتفاع الطبيعي. بحيث تعتبر محطات وعلامات يستدل بها. وتتحكم أيضا في المساحات التابعة أو المحيطة بها، وكذلك لمراقبة كل الطرق المؤدية إليها عن بعد.

المواد والتقنيات المستعملة في المعمار المبني بالتراب بمنطقة سكور

عرفت مواد البناء المستخدمة في العمارة الطينية ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط تنوعا، لما كانت توفره الظروف البيئية من موارد، ويمكن ترتيب هذه المواد حسب أهميتها وكثرة استعمالها في عمليات البناء، على الشكل التالي:

المواد التي لها علاقة مباشرة بالتراب:

قامت على التراب أغلب صناعة البناء، ومواردها ببلاد المغرب كالطابية والطوب وما يتصل بهما من تطيين الجدران أي تلبيسها بالطين، والآجر وما إلى ذلك من المواد الأخرى. ومن ثم تظهر الأهمية الخاصة التي كانت لهذه المادة في تشييد مختلف التكوينات المعمارية بالقرى والمدن بالمغرب في العصر الوسيط.

- الطوب أو الآجر المحلي:

يعود استعمال هذه المادة في البناء إلى عهود قديمة ببلاد المغرب عامة، ومناطق الواحات منها على وجه الخصوص، ويمكن الطوب من تشييد المباني بسرعة وبتكاليف زهيدة. لذلك أقبل الناس بكثرة في المناطق شبه الجافة على البناء به لملاءمته للظروف المناخية، فقلة التساقطات بهذه المناطق يمكن المعالم المعمارية المبنية بالطوب من البقاء مدة أطول. ويقتصر الاستعمال العام للطوب على الإنشاءات العلوية للقصبات، وبناء الستر وغرف الطابق الأخير وتشكل به الزخارف، وبعض العناصر الخاصة كالمعالف وسد الفتحات. وقد بنى المرابطون بعض المباني بمدينة مراكش بهذه المادة، فقد ذكر البيدق أن المهدي بن تومرت لما دخل مراكش نزل بها بمسجد جامع الطوب. والطوب النيئ هو الملائم لتحقيق البناء الجيد والزخرفة، وهو عبارة عن خليط من التراب والقش. والتراب الجيد هو الخالي من الرمال، هذا الخليط الذي يقوم المعلم بوضعه في قالب من خشب، ويعرض لأشعة الشمس لمدة تستغرق من أربعة أيام إلى خمسة أيام وتختلف

أحجام الآجر باختلاف استعمالاته من "قالب صغير الحجم (١٨ / ١٠ سنتيمتر) و "قالب" متوسط الحجم (٢٢ / ٢ سنتيم)، و "قالب" كبير الحجم (٢٦ / ١٤ سنتيمتر). ونشير إلى أن قياس هذه الأحجام ليس ثابتا بل يمكن أن يخضع للتعديل (٢ سنتيم) بصفة عامة (خاصة الجانب التعلق بالطول) وصانعه يسمى "الطواب". ومن الضوابط التي تحكم صناعة الطوب تلك المتعلقة بمهنة المحتسب ومنها، زجر البنائين من صناعة الطوب بقالب بال، لأن ذلك يسبب تشقق الطوب بعد جفافه. ومنعهم من البناء بالطوب قبل أن يبيض، أي قبل أن يجف تماما ويفقد ما فيه من ماء، كما أوجب عليهم الزيادة من غلظه [١].

- البناء المعتمد على اللوح / الطابية:

وهو البناء بالألواح الخشبية وأيضا "الزكز" حسب التسمية المحلية المتداولة، وهو الطابية بتعبير العلامة ابن خلدون. وتعني البناء بالتراب خاصة وتحضر الطابية بطريقة تقليدية. حيث يفرغ التراب المخلوط بالماء والحصى والجير في قالب خشبي (التابوت)، ويتم دكه من طرف المعلم. ويتكون هذا "القالب" من لوحان خشبيان (إفراون) مقدران طولا وعرضا. يختلف مقاسهما باختلاف المناطق والعادات في التقدير، لكن أوسطه أربع أذرع في ذراعين. فينصب اللوحان على أساس الحائط فوق (الشكل)، ويوصل بينهما بأذرع من الخشب (تامنضوت)، ويربط عليها بالحبال (إزيكر) التي تشد بواسطة عصا خشبية تسمى (تيمروت)، وتشد الجهتان الباقيتان بلوحين آخرين صغيرين تسميان محليا (الجبهة الأولى والجبهة الثانية). ويتم دكه من طرف المعلم بواسطة "المركز" (تقبوت) الخشبي حتى تختلط أجزاء تلك المواد. وتتابع العملية إلى أن يمتلئ الفراغ بين الألواح، ثم يعاد نصبها على الصورة السابقة، وهكذا إلى تنظم الألواح سطرا من فوق سطر. وينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة ويسمى صانعه "الركاز" (الطواب) [٢]. (انظر الشكل رقم ٤).

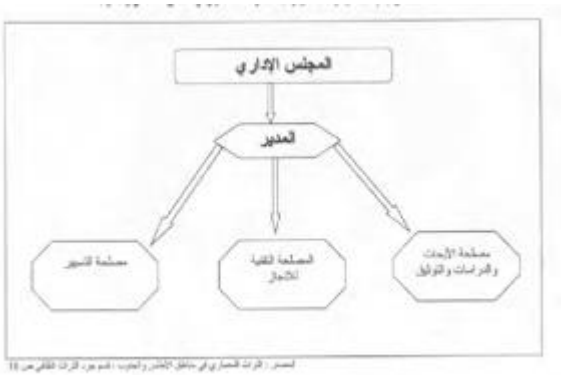

الشكل رقم ٥: مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري في مناطق الأطلس والجنوب

المواد غير المرتبطة بالتراب:

- الحجارة:

وتسمى في اللغة المحلية "القلاع"، وهو الطوبية أو الآجر المقتلع من الأرض الصلبة قصد توظيفه في عملية البناء، وأهم مميزات هذا "القلاع"، قلة تكلفته إذا ما قورن بالآجر المصنوع محليا. لكن ظاهرة البناء بالحجارة قد تراجعت بشكل نهائي في "قصور" وقصبات الجنوب. ما عدا توظيفها في الأساس الأول للبناء وفوق بعض أسوار "الزكز" (الطابية) المحيطة بالحدائق والرياض" ... وأبرز ما في هذا التغيير، تكاثر "تادارين" بالنسبة "لتغرمين"، والميل إلى الطابية للبناء بدل الحجارة.

- الأخشاب:

تعتبر مادة الخشب من المواد الضرورية للمعمار المبني بالتراب في منطقة سكورة. ويمكننا القول إن هذه المادة الملازمة لهذا النوع من المعمار منذ أن تم اعتماده كأساس للاستقرار بواحة سكورة. إذا كيف يتم جلب هذه المادة؟ وما هي طرق توظيفها؟ إن المجال الجغرافي لمنطقة سكورة الغني بغابات النخيل الكثيفة. يوفر لمجموع المعمار الترابي بها هذه المادة الأولية، وذلك بعد اجتثات أشجار النخيل الكبيرة السن، والتي قل إنتاجها من التمور، أو الأشجار التي أصيبت بمرض البيوض، ليتم إخضاعها لعملية النجارة التقليدية المحلية

---

[١] حسن حافظي علوي، المصدر السابق ص ٥٦ .

[٢] ابن خلدون، المقدمة ص ص ٥١١ – ٥١٢ .

لأجل استخراج الأشكال الهندسية الملائمة لسقف المكان المراد بناؤه. ويمكن ترتيب هذه الأشكال الهندسية حسب أهميتها وجماليتها، طبقا للوحدات المعمارية المعتمدة على هذه الأشكال الهندسية.

- "المادة":

نفس العبارة تطلق عليها محليا، ومصدرها هو شجرة النخيل ويعتقد أنها سميت كذلك لامتداد طولها المتراوح ما بين (٣ م و ٧ أمتار) على أكبر تقدير. ويمكننا تقسم هذه "المادة" حسب سمكها إلى نوعين: "المادة" المربعة الشكل، أي متساوية الأضلع التي قد يتراوح قياسها ما بين (٣٠ و ٤٠ سنتيم) واذا كانت "المادة" مختلفة الاصلع فإن قياسها ما بين (١٨ و ٣٠ سنتيم) أو (٢٥ / ٤٠ سنتيم) كأعلى قياس. وعموما فمقياس خشبة "المادة" بشكل عام مرتبطة بمساحة السقف المهيأة من أجله لأنها أنشأت أصلا لتعطي للسقف جمالية ومنظرا معماريا، إذا ما تم استعمالها مع أخشاب "الكايزة" و "الورقة". و "التشبيكة".

- "الكايزة":

وهي التسمية المحلية لهذه الخشبة، وهي عبارة عن شكل مصغر لخشبة "المادة" المربعة الأضلع. ويتراوح طولها ما بين (٢ م و ٢,٥ م) حسب الضرورة المعمارية. أما سمكها المربع الأضلع فيتراوح قياسه ما بين (١٠ – ١٦ سنتيم). وتوظف "الأ ساكيف [٣]" بالنوافذ والأبواب المحيطة بالصحن، ويتكون "الساكف" من "كايزتين" خشبيتين أو ثلاثة، مغروسة في الجدار بشكل عميق، وتحمل هذه الأخيرة الجدار، وتمكنه من الارتكاز عليها مما يفسر استعمال "كايزات" أكثر اتساعا.

- "الورقة":

ومصدرها هي الأخرى من شجرة النخيل، وأغلب الظن أن خشبة "الورقة" قد أخذت هذه التسمية نظرا لجماليتها؛ بحيث يتراوح سمكها ما بين (١,٥ و ٣ سنتيم). أما طولها فيختلف باختلاف الحاجة إليه، فهو محصور بين (١,٥ م و ٢,٥ م). وتستغل خشبة "الورقة" في الزخرفة وذلك بعد إلصاقها بأخشاب "الكايزة" فيما بينهما.

استنتاجات:

انطلاقا مما سبقت الإشارة إليه، يتضح لنا أن عملية البناء عموما تبدأ بإنجاز الجدران الخارجية والداخلية للطابق الأرضي؛ والتي تبنى على طريقة الطابية لغرض دفاعي ومناخي، ثم يوضع السقف، بعدها يبنى الطابق الأول ثم الثاني. إلا أن بناء الطوابق لا يتم في بعض الحالات في وقت واحد وإنما يبقى حسب الحاجة؛ أما الأساطين المركزية للقصبة وسترة الطابق الثالث، والجزء الأعلى من الأبراج فتبنى بالطوب النيئ وتبلط بتكسية معمولة من خليط التراب والتبن.

ويستغرق تشييد القصبات مدة تتراوح ما بين سنة إلى أربع سنوات ويمكن أن يستمر لمدة أطول عن ذلك بكثير. هكذا فإن بناء القصبات بشكل عمودي ينم عن دراية بتقنيات البناء، وفهم كبير لاستعمال المواد وامتداد القصبات إلى أعلى يجيب على الإشكالية التي تطرحها المواقع الجبلية، بعدم توفرها على مجالات أرحب لاستغلالها في البناء، أضف إلى هذا الألوان الطبيعية للمشهد البانورامي، كاللون الأخضر للحقول واللون الأمغر المائل للحمرة للقصبات والمرتفعات الجرداء، هذه التركيبة اللونية تضفي على هذا الفضاء مسحة جمالية لا مثيل لها.

التطور المعماري بواحة سكورة وأبعاده الداخلية

يعتبر نمط سكورة من أقدم الأنماط المعمارية فيما يخص القصبات بالمنطقة، ويوجد هذا النمط عند "أهل سكورة"، و "أيت بودلال" وبعض "أهل إمغران" بأسفل دادس، قرب قلعة مكونة و "تيزي نتدارت"، في اتجاه سكورة و ورزازات، وتأثيرات عمارة درعة تفرض نفسها على هذا الشكل البنياني، إن على مستوى التنظيم الداخلي أو بالزخرفة، وذلك راجع إلى موقعه واستقرار أهل تافيلالت به، وتأثرهم بتقنيات العمارة بدرعة وتافيلالت، أعطى لنمط سكورة شكلا أقرب إلى الحضر منه إلى البداوة، وجعل بالتالي من واحة سكورة متحفا حقيقيا لعمارة الطابية.

---

[٣] جمع "ساكف"، وهو التسمية المحلية لتقنية توظيف الأخشاب. وتقوم على الجمع بين أخشاب "الكايزة". وذلك لحمل ثقل الفراغ الذي تحدثه النوافذ والأبواب في الجدار

صورة تمثل طريقة البناء بالتابوت / الطابية

تنظيم الفضاء الداخلي لقصبات سكورة:

أ- المدخل: يشكل المدخل بقصبات سكورة رواقا يتوسط عادة الجهة الشرقية لكونها الأقل عرضة لأشعة الشمس، والرياح والأمطار، هذا الرواق يربط الداخل بالخارج ببابين منكبين، ويضم عادة الراحة اليدوية التي يستعملها الجيران دون أن يقلقوا راحة أهل البيت.

ب- الصحن أو الفناء: يشكل الفناء بقصبات سكورة مركزا رئيسيا تحيط به باقي المجالات الأخرى، وهو ذو أبعاد مضبوطة، ويبنى على شكل قاعدة مربعة تحده أربعة أعمدة عالية، متجهة بفتحة إلى أعلى للإضاءة، مع فناء ضيق بالمقارنة مع النموذج الحضري. وذلك لقساوة المناخ حيث تصغر الفتحة ليصبح مجرد منفذ للتهوية، وهو محاط بأربعة غرف مفتوحة على ممر، تستعمل إما للسكن أو كمخازن للمؤونة وحفظها.

ت- البهو أو "تمسريت": "تمسريت" أو بيت الضيافة، هي الأخرى لحقها نفس المصير، حيث عوضت بنيات داخل امتداد القصبة مع إنشاء قصبات الأعيان، حيث ظهرت رياض وحدائق استلهمت من النموذج الحضري الذي يعيش هذا النمط تحت تأثيره.

ث- السلاليم: وهي واحدة من أكبر التنظيمات الفضائية للقصبة، وهي تؤمن الربط العمودي بين مختلف التركيبات الفضائية للبناء، حالتها داخل القصبة تبنى دائما على ثلاثة أشكال:

- في زاوية ملاصقة لأحد أبراج القصبة.
- في داخل الصحن.
- في المدخل الرئيسي.

المورفولوجية الخارجية للقصبة:

تتسم الجدران الخارجية للأبراج بهرمية في بنائها، وهذه السمة هي الصفة العامة للأبراج والجدران الخارجية للقصبات، وهذا راجع بالأساس إلى تقنيات البناء المستعملة، والتي تقوم على تقصير حجم الجدران أكثر فأكثر عند الارتفاع حتى يخفف البناء.

نموذج القصر بسكورة ومقارنته بقصور تافيلالت

يتكون "القصر" بسكورة بصفة عامة من طابق إلى طابقين ويتصف بحضور فضاء مركزي، والذي من خلاله تنتظم مختلف الغرف ومختلف لواحق البناية: الطبقة السفلى مكان للأنشطة اليومية، وكذا مكان لاستقبال الزوار وتحتوي أيضا على إسطبلات للحيوانات الأليفة، الطوابق العلوية مخصصة للراحة، غير أن الإقامة في الطابقين ينظمها ويتحكم فيها تعاقب الفصول.

أما فيما يخص مختلف تجهيزات "القصر"، فيمكن القول التنظيم الداخلي "للقصر" يشبه إلى حد ما التنظيم الداخلي للقصبة، هذا مع استثناء عنصري الرياض والحدائق والتي تنفرد بها القصبة دون باقي النماذج المعمارية الأخرى؛ كما تجدر الإشارة إلى الاختلاف الحاصل في بنية "القصر" بكل من سكورة وتافيلالت، "فالقصور" في منطقة تافيلالت هي ذات عدة وظائف خاصة الاجتماعية منها والاقتصادية حيث أن مفهوم "القصر" لدينا يتنامى أمام التركيبة الاجتماعية الكبيرة والمتباينة، والوظيفة الاقتصادية والدفاعية الهامة التي كانت لهذه "القصور"؛ وبالتالي فالتنظيم الداخلي بها، سيتسم بالمجالية والاتساع؛ "فالقصر" بمنطقة تافيلالت يكون دائما على شكل تجمع سكاني داخل بناية موحدة محاطة بسور ضخم وعال تتخلله عدة أبراج مربعة الشكل، وله مدخل رئيسي واحد يمسى محليا "بفم القصر"، فضلا عن أروقة مغطاة وساحة ومسجد ودور سكنية موزعة عبر الأزقة. ويسكن "القصر" إما عائلة واحدة فيسمى بالتالي "قصبة" أو عدة أجاس إثنية (شرفاء، عرب، أمازيغ ...). وقد بلغ عدد القصور خلال القرن ١٩ م حوالي ١٥٠ قصرا يستقر بها حوالي ٩٠ % من سكان تافيلالت، ليبلغ المعدل المتوسط لكل "قصر" ٧١٢ نسمة موزعين على حوالي ١٠ نسمة في كل منزل.

إن أهمية الكثافة السكانية داخل كل "قصر" ترتبط بالدور الاقتصادي وبالأمن اللذان يوفرهما "القصر"، وكان كل "قصر" يشرف على تسييره جماعة محلية برئاسة المقدم، وللجماعة دور رئيسي في حل مختلف مشاكل سكان "القصر". كما أن الجماعة تعتبر مكان الاجتماعات وتبادل الآراء حول المستجدات. وتتوحد الجماعة المتواجدة في كل مقاطعة تحت رئاسة "شيخ"، يكون بمثابة الوسيط بين هذه الجماعات والجماعات الأخرى من جهة، والسلطة الحاكمة من جهة ثانية.

ويبدو لنا من خلال التنظيم الداخلي "للقصر" بواحة تافيلالت، أنه يشبه في تركيبته، المدينة القديمة التي شكلت النواة الأولى لظهور المدن بالمغرب، مع بعض الاختلافات في أبعاد الفضاءات داخل كل نمط معماري. ولقد تحدثنا فيما سلف عن التوافد الذي عرفته منطقة سكورة خلال القرن التاسع عشر، خصوصا في فترة السلطان الحسن الأول. وكانت منطقة تافيلالت منطلقا لبعض هذه التوافدات، مما يفسر لنا تشابه النماذج المعمارية وكذا المظهر المادي الذي جعل بعد هذه العائلات الميسورة، قد أوكلت مهمة البناء إلى "معلمين"، "كالمعلم أحمد" (من نواحي "إمغران" كان قد جلبه المديحي بريك للإشراف على بناء قصبته بدوار الروحة – أولاد الشيخ علي – أهل الوسط – وذلك سنة ١٩٣٠) أحد كبار "المعلمين" الذين كانوا يشرفون على هذا النوع من البناء، مما يفسر الانصهار والتعايش الحاصلين بين الساكنة العربية المالكة، وهذا العمار الترابي الذي شكل النموذج الحي للهوية الفنية الأمازيغية في مختلف أبعاده وفضاءاته.

خلاصة:

إن ما يميز القصبات بنمط سكورة هو اتساقية المبنى، وتكيفه مع المعطيات الطبوغرافية، كما أن الانفتاح الداخلي يعطي انطباعا بالاتساع وإحساسا بالراحة، ورغم التغييرات الحاصلة في شكل القصبات، فإنها حافظت بالتأكيد على مستواها التنظيمي الذي كان يسود بيوتات "القصور" بالواحات الجنوبية.

وفي النهاية، فإن عمارة القصبات ليست وليدة الحس الساذج والصدفة الممكنة. بل تختزل تجارب معمارية وتقنية متجذرة، استطاعت عبر الأجيال أو توحد بين الضرورات الاستعمالية الوظيفية، والبعد الجمالي وتسمو على رأي المستشرقين من كونها ظاهرة معمارية ساذجة وبدائية لتثبت أنها الأصالة في البيئة والتاريخ بكل مقوماته الحضارية.

صورة تمثل دار امرائن بدوار أولاد بوصنة فرقة أولاد معقل ٢

قصبة أمرديل على ضفة وادي الحجاج بدوار أولاد يعقوب ١

تراجع وتدهور المعمار المبني بالتراب بواحة سكورة وخطوات المحافظة ورد الاعتبار

تراجع وتدهور المعمار المبني بالتراب بواحة سكورة:

لقد عرفت واحة سكورة فترة ازدهار حضاري، تشهد عليها البقايا الأثرية والقصبات الموجودة حاليا. فالزخرفة وأيضا تقنيات البناء تشهد على فن ومعلمة وجمال لا مثيل له. وللأسف فاليوم هذه الهندسة في طريق الانقراض، والقصبات في وضع المقاومة الصعبة أمام الهجرة وقلة الصيانة والمحافظة مع استهلاك الوقت والمواد.

وترى D. Jacques Meunie في تحليلها الذي أوردته في كتابها (d Dades Architecture et hab itat) أن أسباب خراب وتراجع القصبات تتمثل في:

- الحروب التي كانت من بين الدلائل الأولى على انقراض وتراجع القصبات. " ... وقد تغيرت أشياء كثيرة في السكن القروي، الجبلي بسبب تفكك الأسرة الكبيرة... ثم إن "التغرمين" قد تعرضت لهدم مقصود عند غزو الفرنسيين للقبائل (...) وهدم دورهم العالية أي "التغرمين"، وقد وقع مثل هذا التخريب المقصور لقصور دادس وحصون تدغة في ظروف مماثلة (أحمد توفيق / إنولتان).
- جفاف المنطقة، كبعض الأودية كوادي "إزركي" الناتج عن ظروف مناخية؛ كذلك السدود وقنوات الري لم تستصلح منذ عدة سنوات، الشيء الذي كان سببا وراء هجرة المنازل وانهيارها؛ هذه الحالة ستصبح حديثة في سكورة، حيث أجمعت كل الشهادات على أن النخيل ظل خصيبا وينبت جيدا حتى سنة ١٩٣٠ م. وبعد سيادة الأمن وفي ظل غياب أية تدابير تحكم توزيع حصص الماء بين العالية والسافلة بالمنطقة، سوف يقوم سكان "إمغران" بنزع الماء من عالية الوادي، لتقل بذلك حصة سكورة منه، وبالتالي الواحة ستعاني ندرة المياه، مما سينتج عنه هجرة هامة للقصبات، هذه الهجرة ستزيد حدتها بعد تنمية المناطق الحضرية وتنامي التبادلات الاقتصادية والاجتماعية الحديثة بالمغرب. مما ساهم في الانفصال عن الأشغال الفلاحية وصيانة الخطارات. بالإضافة إلى حالات الوفاة التي طالت الشيوخ المرتبطين بالأرض فأصبحت الأراضي المهجورة في حالة خراب كبير، مع تراجع الموروث الثقافي المتمثل في هندسة البناء.

المحافظة ورد الاعتبار:

نظرا للتخريب والتدهور اللذان لحقا التراث المعماري بالجنوب، قررت وزارة الشؤون الثقافية إنجاز مجموعة من المشاريع، من ضمنها إنشاء (مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري في مناطق الأطلس والجنوب) (انظر الشكل رقم ٥) وذلك من أجل:

- جرد المآثر والبنايات التي لديها أهمية خاصة تاريخيا، معماريا جماليا وذلك برسم خرائط طبوغرافية معمارية وتصويرية.
- القيام ببرامج للحفاظ والترميم حسب الأولوية.
- تنفيذ أعمال الصيانة والدعم والحفاظ والترميم.

القيام بدراسة جهوية اجتماعية، عرقية وتقنية، وأخرى يمكنها تنمية معرفة المعمار التقليدي في المناطق الأطلسية وشبه الصحراوية والصحراوية، وعليه فقد تم الشروع في تنفيذ العديد من مستويات الإصلاح والترميم تهم الهندسة الداخلية والخارجية التي تشكل القيمة الهندسية المعمارية والزخرفية لهذا التراث، وذلك من طرف المصلحة التقنية للإنجاز بمركز Crkas (مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري في مناطق الأطلس والجنوب، ورزازات).

جهود الإصلاح هذه، يجب أن تضاف إلى إرادة الحفاظ الثقافي، مقابل إمكانية الاستغلال السياحي بالنسبة للقصبات التي لا يمكن إصلاحها. والتسجيل والدراسة في نطاق ثقافي من أجل استخلاص المظاهر التاريخية والهندسية، وكذا نشر هذا التسجيل والدراسة يؤمن للباحثين وللأجيال الصاعدة، تعليما ومعلومات قيمة حول ثقافة غنية وحضارة مهددة بالانقراض. وبفضل هذا تم جرد ٣٠٠ قصبة ١٢ منها أخرجت في حالة مستعجلة؛ وذلك في إطار تكوين مجموعة من الملفات التقنية حول المعالم والمباني بهدف تقييدها وترتيبها طبقا لمقتضيات الظهير الشريف رقم ١ – ٨٠ – ٣٤١ بتاريخ ٢٥ دجنبر ١٩٨٠ . وعلى ضوء ذلك بدأ Cerkas في تنفيذ أهداف رسمها عند تأسيسه، ولكن منطقة سكورة ليست مدرجة في برامج الصيانة والترميم، أكيد أنها تم جردها وتسجيلها في الأولويات بالنسبة لبعض البنايات، ولكن هذه الأخيرة لم يتم إصلاحها، ولم يجر أي بحث في الميدان إلى الوقت الراهن.

تكنولوجيا التحكم في المياه بواحة سكورة (الخطارات نموذجا)

تدبير الثروة المائية بالجنوب المغربي:

فرض الجفاف بالجنوب المغربي على الإنسان استعمال عدة تقنيات للري، لأن استغلال الأرض كان يتطلب مجهودا إضافيا للتحكم في الماء كمادة نادرة تكتسي أهمية كبرى أكثر من الأرض. وقد اكتسب سكان المنطقة الجنوبية خبرة وتجربة طويلة في ميدان الري تعود إلى بداية الأنشطة الزراعية والرعوية للإنسان النيوليتكي صاحب النقوش الصخرية في يوكور وأوكايمدن. إذ أثبتت دراسات حبوب اللقاح

Plyologie أن الإنسان بالجنوب المغربي عرف السدود البسيطة وأقامها حتى في المناطق الرطبة نسبيا. وعرفتها أيضا مناطق تيزي نتيشكا على علو ٢١٩٧ م خلال العصر البوري وبداية الشبه الأطلسي (٢٥٠٠ – ٨٠٠ ق. م). مما يدل على أن الإنسان أنشأ السدود لحقن المياه، لاستعمالها لشربه ولشرب حيواناته. وأهم المناطق المسقية بالجنوب المغربي خلال العصر الوسيط. الحوز، جبال درن وجزولة، سهل السوس، والواحات الصحراوية وأهمها واحتي درعة وسجلماسة. وتختلف تقنيات التحكم في المياه وتعبئتها تبعا لنوعيتها: مياه المطر والمياه السطحية والمياه الجوفية. وسنعطي مثالا لأهم تقنيات استغلال المياه الجوفية والمتمثل في نظام السقي بالخطارات.

نظام الخطارات، وتوزيع الماء بواحة سكورة:

الخطارات تقنية فارسية انتشرت بشكل واسع في المغرب والأندلس وأفريقيا، ويقال عادة إن أحد المهندسين الأندلسيين هو الذي أنشأ الخطارات بالجنوب المغربي في عهد يوسف بن تاشفين وهو المهندس الأندلسي عبيد الله بن يونس. ومن خلال قراءة الإدريسي الذي أورد هذا الخبر تبين أن هذه التقنية كانت معروفة. إذ تحدث عن وجودها بالصحراء كذلك. وذكر مرادفها الأمازيغي هو "أبقجة". أما كولان فيعتقد أن يهود درعة هم الذين أدخلوا هذه التقنية إلى مراكش، والخطارة تقنية للري المتوسط. بينما الآبار وأغلب العيون للري الصغير.

إن مناخ المنطقة الذي يتميز بأمطار قليلة وغير منتظمة (٥٠ إلى ٢٠٠ ملم في السنة). إضافة إلى درجات الحرارة المرتفعة في الصيف والمنخفضة في الشتاء (من ٤٥ درجة إلى ٥)، كما أن التفاوت في درجات الحرارة اليومية بلغ (١٥ إلى ٢٠ درجة)، التهوية المرتفعة باستثناء داخل الواحة حيث الأشجار التي توفر مناخا آخر. رياح قوية تهب من الشرق "الشركي". أو من الجنوب الغربي "الساحل" كلها ظروف جعلت من الماء عنصرا هاما لدى السكان.

كل مياه الأمطار والثلوج المتساقطة في جنوب الأطلس الكبير، تتجمع في بحيرات تتدفق منها المياه نحو واحة سكورة، التي تمتد شمال وادي دادس على ١٥ كلم، واتساع ٥ إلى ٨ كلم. منابع المياه الجوفية بالمنطقة تستغل بواسطة وسائل تقليدية وأهمها شيوعا نظام الخطارات التي يصل عددها تقريبا إلى ٦٤ فما فوق. ولكن هذا النمط القديم المتوارث والمقتبس من العرب كما تمت الإشارة إليه سابقا يختفي شيئا فشيئا، ستة منها أهملت تماما. هذه التقنية السقوية تعتمد على تجميع المياه عند سفح الجبل في آبار شاسعة، يحفرها الإنسان ثم تصل المياه إلى البساتين باتباع الانحدار الطبيعي للجبل، لتصب في صهريج أو حوض للتجميع وهي برك استخدمت لتجميع المياه قصد تنظيم السقي وتوزيع المياه على الحقول والبساتين. وذلك عن طريق السواقي أو "تيركا" بالأمازيغية وهي أيضا من المصطلحات التي اختفت بمنطقة سكورة في ظل تداول مرادفتها في العربية "الساكية". وقد ذكر البكري في القرن الخامس أن أول منطقة بالصحراء كانت تسمى "تاركا" وتسكنها قبيلة "تزكاغت"، وهو المكان المترجم بالساقية الحمراء فيما بعد. (انظر الشكل رقم ١).

ويكتسي توزيع المياه في منطقة جافة، وشبه جافة تتميز بقلة الماء، أهمية لا تقل عن التقنيات المستعملة في استخراجه والتحكم فيه، ويمكننا أن نجاري صاحب "الاستبصار" أن الجنوب المغربي بلد تحقيق وتدقيق يتطلب توزيع المياه بحساب دقيق ولقد استعملت عدة مقاييس لتوزيع هذه المادة الحيوية. أهمها قياس حصص الماء بواسطة الساعات؛ إما ساعات الظل أو ساعات مائية.

هذه التقنيات تعود إلى الفترة الرومانية بدليل أن حصة من الماء تسمى إلى يومنا هذا بالأطلس الصغير "إفيلي ن وامان" بالأمازيغية أي خيط الماء، وهو المصطلح الذي كان يطلق عليه كذلك بالأندلس في صيغة "فيلا" Fila ، ومعلوم أن أصل الكلمتين لاتيني.

وتوزيع المياه لا يقتصر على ذوي الحقوق فقط، بل يشترك فيه جميع أفراد القبيلة، وذلك حسب نظام استغلال مقنن خاصة القياس المعتمد على الساعات. ومن خلال ما سبقت الإشارة إليه يظهر جليا أن هناك أعرافا وقوانين تنظم توزيع الماء بين ساكنة المنطقة حسب عدة اعتبارات، إلا أنه رغم الأعراف والقوانين المنظمة لتوزيع المياه، كانت تحدث خلافات ونزاعات بين بعض سكان الجنوب المغربي على الماء خلال العصر الوسيط خاصة عندما لا تكون هناك سلطة تشرف على توزيع الماء، كما حدث ببلاد القبلة (درعة وتافيلالت) في النصف الثاني من القرن السابع الهجري. حيث لاحظ العبدري الحاحي أن الفتن والحروب تحدث بين سكان "القصور" بهذه الناحية، ويتجنبون مع ذلك الإضرار بمنشآت السقي في واحاتهم في القرن العاشر الهجري حسب شهادة الحسن الوزان.

وسنقدم نموذجا في استغلال مياه الخطارات بالمنطقة وكذا المقاييس المعتمدة والقوانين المنظمة لتوزيع المياه:

يقوم نظام الاستغلال على أسس قبلية بالأساس، فالقبيلة هي المالكة لجميع العيون، وهي ما يصطلح عليها بالمنطقة باسم "الخطاطر" * ، حيث تقوم القبيلة بشراء قطعة "الفدان" * من أحد الفلاحين، في حالة ما كانت هذه الأرض واقعة على الخط الذي تسلكه مياه الخطارة المنحدرة من الجبل على طول "أدوال" * حيث يبلغ طول هذه الخطارة حوالي ٢ كلم والعرض مع منسوب المياه، كما تجدر

الإشارة إلى أنه إضافة إلى هذا الاستغلال القائم على شراء حصص الماء. فإن هناك نظام سقوي تقننه القبيلة حسب منسوب المياه داخل "الخطاطر"، وهو القائم على الاستفادة الجماعية من مياه الخطارات. هذه الاستفادة تتجلى في فتح المياه الجارية في الساقية إلى قطعة الأرض الفلاحية، حتى تعم المياه جميع "الفدان"، ليقوم صاحب الأرض بغلق المياه عن حقله، لتمر إلى "الفدان" المجاور له. وهكذا إلى أن تسقي جميع "الفدادين". ويحق لصاحب "الفدان" التنازل عن حقه المشروع من حصة الماء من الدورة السقوية لصالح فلاح آخر، يحتاج إلى هذه الحصة، بشرط تنازل هذا الأخير عن حصته في الماء في الدورة القادمة في حالة طلب الأول رد حصته. إضافة إلى هذا الاستغلال الفلاحي فإن مياه الخطارة تستعمل أيضا في الاستغلال الذاتي والمتعلق بالأعمال المنزلية. وذلك في تنظيف التجهيزات، والتطهير، أو استغلاله كماء صالح للشرب. ولأن استغلال مياه الخطارات بالمنطقة يتم عن طريق بيع حصص الماء بقياس الساعات، فالفلاحين يعبرون عن هذا القياس بمصطلحات خاصة ومعينة بكل حصة ماء. ومنها ما يلي:

- ثلاثة "خطاطر" : استغلال المياه لمدة ٦ أيام أي ما يعادل ٦ نوبات.
- "نوبة" : استغلال المياه خلال فترة الليل والنهار وتعادل ٢ "فرديات"، أي ٢٤ ساعة.
- "فردية" : استغلال فترة الليل أو فترة النهار في السقي وتعاد ١٢ ساعة.
- "نص فردية" : استغلال المياه لمدة نصف نهار وتعادل ٦ ساعات.
- "ربع فردية" : استغلال المياه لمدة ٣ ساعات.

هذا النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي تمثل فيه القبلية المستثمر الأول في المجال الفلاحي، هو ما يفسر استمرار الازدهار الفلاحي بالمنطقة، هذا الازدهار الذي عرف تراجعا تحت وطأة الجفاف الذي يعصف بالأخضر واليابس. والملاحظ أنه رغم التعاقب الدوري فيصل منسوب مياه الخطارة في حالة التساقطات إلى ٤٠ متر، وفي فترات الجفاف من ٥ إلى ٢٠ متر، ويتخلى الفلاح فقط عن القطعة الأرضية التي تشغلها "الخطاطر"؛ وتخول القبيلة مهمة تسيير "العين" وكرائها للراغبين في استغلال مياهها حسب الحصص المتعارف عليها. وغالبا ما يكون هو نفسه من سهر على حفرها منذ البداية. وفي دوار "الخامسة" بالضبط نجد ثلاث عيون حفرت على طول الخطارة، منها "عين المالكية" في ملكية "القبابة"، و "عين الوسطانية" في ملكية "الحدادة"، والتي تم ترميمها مؤخرا، ثم "عين الثلث" في ملكية "الزاوية"، و "عونيت فرجي".

خاتمة:

تدخل هذه الدراسة في باب المساهمة في التعريف بتاريخ منطقة سكورة، من الجانب التاريخي والاجتماعي، والذي يمس العلاقة التي تربط المجال بساكنة المنطقة. والوجه العام لنمط الاستقرار الذي تميز به حوض دادس وعامة، ومنطقة سكورة على وجه الخصوص. وأمام قلة الكتابات في الحقل الاجتماعي والثقافي للمنطقة، برزت الأبحاث الأجنبية المهتمة بالموروث الثقافي بها، خاصة المعمار المبني بالتراب والمتمثل في القصبات و "القصور" التي تميز حوض درعة، باعتبارها نموذجا حيا يزخر بكل المظاهر المتجلية، والتي تنم عن التوافق الكبير الحاصل بين الإنسان والطبيعة.

فمظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية، تأثرت بمعطيات الظروف الطبيعية، فندرة المياه ساهمت في تكريس صيرورة تاريخية، تمثلت في تقنية الخطارات التي مازالت الممول الرئيسي لساكنة المنطقة بعنصر الماء، الذي لعب دورا هاما في الاستقرار البشري، وبالتالي ظهور أنماط عمرانية عرفت تطورات بتطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، هذه الأخيرة التي كانت وراء إضفاء صورة متميزة على هذه الأنماط، حيث تبين لنا أن العامل العقائدي كان حاضرا في تشكيل المظاهر الحياتية بالمنطقة. فالتقاليد والأعراف كانت دائما الموجه الأساسي في بناء المجتمع السكوري، عبرت عنه التدابير الفلاحية والعمرانية التي ربطت الماضي بالحاضر.

وبعد دراستنا لهذا الموضوع خلصنا إلى ما يلي:

أولا: إن قساوة الظروف الطبيعية لم تثن الساكنة من خلق وسط ملائم للعيش. وذلك بتقنين عملية الري، والتي كانت مثالا عن حسن التدبير القبلي للمياه داخل الحيز الواحي، مما يفسر استمرار الارتباط والاستغلال البشري للأرض.

ثانيا: إن البناء المعماري بالمنطقة جاء نتيجة للظرفية التي فرضتها الظروف الطبيعية، وكذا توفر المواد المستعملة في هذا المعمار، وتناسق استعمالها دليل على عمق الانسجام الحاصل بين الإنسان وبيئته.

ثالثا: إن المعمار المبني بالتراب، ليس إفرازا للحس الساذج والمتخيل، بل كان خلاصة لمتطلبات الاستقرار، أدركها الإنسان عبر فترات زمنية، عرفت فيها أبعاد القصبة والقصر عدة تطورات بتطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

رابعا: إن سيطرة ثقافة العنصر العربي في مختلف المعاملات بين ساكنة المنطقة، يفسر لنا إشكالية تعارض هوية الفن المعماري بثقافة الملاك، واستمرار هذه الوضعية راجع إلى التجانس الكبير بين مختلف شرائح المجتمع السكوري.
خامسا: إن التحول الحاصل في بنية "القصر" بحوض دادس مقارنة مع "قصور" تافيلالت، فرضته طبوغرافية المكان، وقدم التعمير، ونوعية الأنشطة البشرية في كل منطقة.
سادسا: إن الاحتلال الفرنسي لمنطقة درعة، جاء بتنظيم جديد للمجال، ساهمت فيه فئة القادة – الكلاويين – الكبار بالمنطقة، بعد خروجها من النمط التقليدي "للقصور" وتشييدها للقصبات تدعيما لسلطتها، وإقامة بنايات جديدة للفرنسيين، والتي لم تكن سوى ترسيخا للنموذج العصري الأوربي وسط الأنماط القديمة "للقصور".
وعموما فهذا الإرث الثقافي أصبح في طريق الانقراض رغم محاولات الترميم والإصلاح، خاصة تلك التي قام بها المستفيدون الأجانب، في ظل ضعف إمكانيات الوزارة المعنية. فهل يكون ذلك وسيلة حقيقية لإنعاش السياحة الثقافية الوطنية؟ أم أنه فقط قناع لتغريب هذا الموروث الثقافي بالجنوب المغربي؟

لائحة المصادر والمراجع

المصادر:

- ابن خلدون، المقدمة، مراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر بيروت، ط ١، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ .
- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٢، تحقيق ومراجعة كولان وليفي بروفنصال، دار الثقافة بيروت، لبنان، ط ٣، ١٩٨٣ م.
- البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، نشر دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧١ م.
- الرواية الشفوية (أنظر الجدول التفصيلي).

المراجع:

- أحمد توفيق، المجتمع المغربي في القرن ١٩ (إينولتان ١٨٥٠ م – ١٩١٢)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، أطروحات ورسائل، ط ٢، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م.

الندوات والمنشورات:

- مجلة التراث المعماري في مناطق الأطلس والجنوب، نشر قسم جرد التراث الثقافي، مديرية التراث وزارة الشؤون الثقافية، ١٩٩٠ م.
- ندوة المجال والمجتمع بالواحات المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، ١٩٩٣ م.
- ندوة المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط، ١٩٩٩ م.
- ندوة تاريخ الري في الجنوب المغربي، الأيام الوطنية الثامنة للجمعية المغربية للبحث التاريخي، أكادير، ٢٠٠٠ م، نشر مجلة أمل، العدد ٢٤ ، ٢٠٠١ م.

المصالح الإدارية:

- مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري في مناطق الأطلس والجنوب، Cerkas ، ورزازات.
- مندوبية وزارة الإسكان والتعمير، ورزازات.

قائمة المراجع غير العربية:

- Khalid el Assal, j awad el Basri, hicham malti « etude architecturale des Qisbas et Qsour de Gkrzazate », direction de F architecture.ministre de Famenagement du teraitoire de Fenvironement de Furbanisme et de Fhabitat ,Ouarzazate, fvrier 202.
- DAUde vallee du Draa, Spport n°l, d'etude preliminaries et srategies de base, direction de Furbanisme, ministre du logement et de Furbanisme, 12 nov. 2002.
- Sylvie Cailloux Rebotier , «la palmeraie de Skoura (Maroc ,memoire de mitrise Formation continue,Paris II Universite de la Sorbonne nouvelle 19951996.
- Mcent Soriano Alfaro, « I taller para el inventariodo de la arquitectura de Skoura Dades — Marruecos ».Valancia ,mars2002